نظرية الاكتساب اللغوي عند تشومسكي

مسعود طارق
باحث في اللسانيات وديداكتيك اللغة العربية
المغرب

مقدمة

لا يخفى على المهتمين بالقضايا التربوية، أن عملية اكتساب اللغات وتعلمها قد حظيت باهتمام كبير، وأخذت حيزا مهما ضمن النظريات اللغوية منذ القدم. فالإنسان كائن بشري مجبول على النطق والكلام، ولا يمكنه تحقيق التواصل الفعال والانخراط السلس مع محيطه الاجتماعي دون ملكة اللغة.

وبناء على هذه المعطيات، ظهرت مجموعة من النظريات اللغوية التي حاولت البحث في قضايا اكتساب اللغة وتعلمها منذ القدم، وانتقل الدرس اللساني من البحث في اللغة لذاتها وفي ذاتها إلى البحث في عوامل إنتاج اللغة وآليات تحقيق التواصل.

وفي هذا السياق، نتحدث عن إحدى النظريات التي أحدثت ثورة علمية لغوية لا تزال قائمة إلى حد الآن، ثورة علمية حولت البحث من محاولة دراسة اللغة لذاتها وفي ذاتها كما كانت الحال مع اللسانيات البنيوية إلى البحث في اكتساب اللغة وإنتاجها والعوامل المساهمة في ذلك؛ والحديث في هذا الشأن عن اللسانيات التوليدية التحويلية مع رائدها نعوم تشومسكي.

وتنطلق النظرية التوليدية من فكرة أن اللغة ظاهرة إبداعية خلاقة؛ حيث يمكن للطفل وانطلاقا من عدد محدود من الكلمات والقواعد إنتاج عدد لا محدود من الجمل. وبالتالي، فالطفل لا يكتسب اللغة عن طريق التجربة والتفاعل مع المحيط، وإنما يكتسبها لأنه مزود بآليات لغوية فطرية داخلية، ودور المحيط هو تطوير هذه الآليات.

ونحاول في هذا المقال تسليط الضوء عن أهم الأفكار الواردة في نظرية اكتساب اللغة عند تشومسكي. وذلك، من خلال البحث في المنطلقات العلمية والفلسفية التي بنى عليها نظريته في اكتساب اللغة، كما سنقف عند المفاهيم المركزية التي تشكل عماد هذه النظرية.

1. المنطلقات الفلسفية والعلمية

يمكن القول إن اللسانيات التوليدية التحويلية قد أحدثت قطيعة مع الدراسات اللسانية التي قبلها ولا سيما اللسانيات البنيوية بزعم أنها اهتمت بالإنجاز وأهملت القدرة؛ وهو الموضوع الذي تركز عليه اهتمام اللسانيات التوليدية منذ صدور كتاب البنى التركيبية لتشومسكي سنة 1957. حيث تحول الاهتمام من البحث في اللغة لذاتها وفي ذاتها كنسق مغلق إلى البحث في اللغة باعتبارها ظاهرة فطرية إبداعية خلاقة.

ومنذ ذلك الحين، انكبت الأبحاث والدراسات على محاولة فهم الأفكار اللسانية لتشومسكي، ولعل هذا الاهتمام راجع بالأساس إلى المنطلقات العلمية والفلسفية المتعددة التي انطلق منها تشومسكي في بناء نظريته اللسانية.

استند تشومسكي في بناء نظريته اللسانية الرافضة للتصورات والأفكار التي قامت عليها اللسانيات البنيوية إلى الفلسفة العقلانية مع ديكارت(Rene Descartes) ونحاة بور رويال(Port- royal) والفيلسوف الألماني همبولدت(Wilbem Von Humboldt) وغيرهم من الفلاسفة العقلانيين...

ومعلوم أن الفيلسوف العقلاني ديكارت قد كانت له إسهامات علمية رائدة في مجال اكتساب اللغات؛ وهو من تحدث عن قضية الفطرية اللغوية. وفي هذا الصدد، يقول مصطفى غلفان:" أخذ تشومسكي عن ديكارت الفكرة المتعلقة بفطرية اللغة Inneisme linguistique وهو ما يعرف بالفطرية اللغوية أي وجود بنيات لغوية تصورية مجردة جاهزة للاستعمال عند الإنسان. فاللغة البشرية عند ديكارت كما عند تشومسكي صفة ملازمة للجنس البشري تميزه عن غيره من الكائنات الأخرى. يؤكد ديكارت، أولا على أهمية التفكير المجرد عند الإنسان بواسطة العقل باعتباره آلة عامة يمكن استخدامها في كل أنواع الطوارئ، ليخلص أنه بفضل هذا العقل يمكن للإنسان أن يتصرف حيث تعجز كائنات أخرى عن القيام بذلك"[1].

واضح أن تصور ديكارت لاكتساب اللغة يستند إلى الفطرية اللغوية؛ حيث إن عقل الإنسان مزود بآليات ومبادئ فطرية، تؤهله لاكتساب اللغة. وأن هذه المزايا التي يتصف بها عقل الإنسان هي جوهر ما يميز الجنس البشري عن الكائنات الأخرى. وهذا جلي عقلانيا وتجريبيا حيث إن الحيوانات تصدر أصواتا ولكنها لا تصل إلى مستوى النطق بأصوات متعددة، تشكل من خلالها كلمات وجمل للتواصل بها. وهذا دليل قاطع على أن الإنسان كائن متفرد بالعقل المتضمن لمجموعة من الآليات والقدرات الذهنية التي تؤهله لاكتساب اللغة والتواصل بها. وقد عبر ديكارت عن ذلك بقوله:" مما يستحق الذكر أنه ليس من الناس الأغبياء والبلداء حتى دون استثناء البلهاء منهم، من لا يقدرون على تأليف كلمات مختلفة وأن يركبوا منها كلاما به يجعلون أفكارهم مفهومة. وبالعكس ليس من حيوان آخر مهما كان كاملا ومهما نشأ نشأة سعيدة يستطيع أن يفعل ذلك"[2]. وبهذا يكون ديكارت، قد أسس لفكرة الفطرية اللغوية التي سيكون لها شأن عظيم في الدراسات اللسانيات من بعدها لا سيما اللسانيات التوليدية.

وبالإضافة لاستناد تشومسكي إلى أفكار ديكارت، فقد حاول في هذا الموضوع التفاعل مع ما يعرف بمشكل أفلاطون الذي يتأسس على محاولة تفسير كيف يمكن للمرء أن يعرف هذا القدر الهائل واللا محدود من المعارف انطلاقا من معلومات محدودة جدا؟ ويمكن التدليل على هذا المعطى بالجانب الصوتي، حيث إن الإنسان وبالاعتماد على عدد محدود من الأصوات يمكنه إنتاج عدد لا محدود من الكلمات. وهذا ما يفسر أن اللغة ظاهرة إبداعية خلاقة تسمح بإنتاج عدد لا محدود من الكلمات والجمل انطلاقا من عدد محدود من الأصوات.

وبالإضافة إلى ديكارت وأفلاطون، فقد كان لنحاة بور رويال تأثير كبير في أفكار تشومسكي، ويتأسس نحو بور رويال على فكرة أساس مفادها أن اللغة وعاء العقل وتعبير منطقي عن الفكر، وبناء على هذا التصور سعوا إلى وضع إطار قواعي عام تنضبط له جميع اللغات. و"نحو بور رويال نموذج واضح لتأثير الفلسفة العقلانية في الدراسة اللغوية عامة، وفي النحو التوليدي بشكل خاص، ويرى نحاة بور رويال أن اللغة تعبير منطقي عن الفكر، وعلى هذا الأساس حاولوا وضع قواعد نحو عام ينطبق على جميع اللغات البشرية، وقد تأثر تشومسكي في نظريته للنحو الكلي بهذه الفكرة من مؤلفات نحاة بور رويال ولا سيما كتابهم المعنون بالنحو العام العقلي"[3]. وتصور نحاة بور رويال ينسجم مع تصور ديكارت حول تطابق البنيات العقلية والبنيات اللغوية، حيث إن اللغة ما هي إلا تعبير منطقي عن الفكر. فاللغات رغم اختلافها على مستوى البناء التركيبي والصوتي والمعجمي إلا أنها تشترك في البنيات التحتية العقلية. وفي هذا السياق، يقول غلفان(2010):" ومن هذا المنطلق، سعى نحاة بور رويال إلى وضع قواعد نحو عام ينطبق على جميع اللغات البشرية، لأنها مهما اختلفت وتنوعت وتعددت تلتقي في كونها تخضع للقواعد نفسها التي تجسدها المقولات العقلية العامة عند الإنسان، التي تعد من منظور نحاة بور رويال أساسا صالحا لبناء نحو اللغات وصياغة قواعدها. إن المقولات النحوية جزء من المقولات الفكرية العامة، بل إنها مرآة لها، نظرا إلى التطابق التام بين البنية اللغوية والبنية المنطقي. هذا الطابع العقلي العام للبحث اللغوي عند بور رويال يفسر لنا استعمالهم العنوان الفرعي لكتابهم النحو العام والعقلي الذي يحتوي على أسس فن الكلام والأشياء المشتركة بين اللغات"[4] . وبالتالي، يمكن القول إن تشومسكي وجد في هذه الأفكار العقلانية الأسس التي سينطلق منها في بناء نظرية للنحو الكلي، يمكن بموجبها بناء نحو كلي يفسر جميع اللغات البشرية، من حيث اكتسابها وتفسير العلاقات بين مكوناتها.

2. الجهاز المفهومي لنظرية تشومسكي في الاكتساب اللغوي

كأي نظرية علمية، تأسست اللسانيات التوليدية التحويلية على مجموعة من المفاهيم والمصطلحات المحورية التي تعد عماد نظريته اللسانية، ولا يمكن الإمساك بتلابيب هذه النظرية دون فهم هذه المصطلحات اللسانية واستيعابها. فمعركة الباحثين في اللسانيات التوليدية التحويلية هي معركة مصطلحات؛ حيث إن تشومسكي أحدث قطيعة مع النظريات اللسانية السابقة على مستوى الأفكار والتصورات من جهة، وعلى مستوى المصطلحات أيضا من جهة أخرى.

لقد أحدث تشومسكي منذ صدور كتابه البنى التركيبية سنة 1957 ثورة لسانية شغلت المهتمين والباحثين في أغلب بلدان العالم، وقد حاول تشومسكي في هذه النظرية توضيح أفكاره وتصوراته من خلال عدد كبير من المصطلحات اللسانية التي سنأتي على بعضها في هذا المقال المركز.

1.2. القدرة

القدرة من المفاهيم المركزية في نظرية تشومسكي اللسانية، وتشير إلى أن الإنسان يتوفر على مجموعة من القواعد الضمنية، تؤهله لإنتاج عدد لا محدود من الجمل النحوية. ويسميها البعض الكفاية اللغوية، ويقصد بها أن الإنسان يمتلك في ذهنه قدرات لغوية تسمح له بإنتاج وتأويل ما لا حصر له من الجمل النحوية. ويؤكد غلفان هذه المعطيات بقوله:" إن القدرة هي المعرفة اللغوية التي يدخلها كل فرد متكلم بلغة معينة في شكل قواعد؛ وتمكنه من إنتاج ما لا حصر له من الجمل النحوية التي لم يسبق له أن أنتجها، ومن تأويل/ فهم جمل لم يسبق له أن سمعها. إن كل متكلم يملك آلية مولدة بكيفية واضحة ومحددة للجمل النحوية في لغة معينة إنتاجا وتأويلا صحيحين. إن هذه المعرفة الضمنية بقواعد اللغة هي ما يسميه تشومسكي القدرة اللغوية Competence liguistique "[5].

يظهر مما سبق ذكره، أن القدرة اللغوية هي المعرفة الضمنية بالقواعد التي تمكن الإنسان من إنتاج وتأويل عدد غير محدود من الجمل النحوية. ويجب الإشارة في هذا الصدد أن إنتاج عدد لا محدود من الجمل النحوية لا يعني إعادة الجمل وتكرارها وإنما إنتاج جمل جديدة بناء على ما تتميز به القدرة من خاصيتي الخلق والإبداع. فالقدرة اللغوية من منظور تشومسكي لا تعني فقط القدرة على إنتاج ما لا حصر له من الجمل وإنما القدرة على تأويلها أيضا.

2.2. الإنجاز

يشكل الإنجاز والقدرة ثنائية مركزية في اللسانيات التوليدية التحويلية، فإذا كانت القدرة كما أشرنا سابقا هي مجموعة من القواعد الضمنية الموجودة في ذهن المتكلم، وتسمح له بإنتاج وتأويل ما لا حصر له من الجمل. فإن الإنجاز هو الاستخدام الفردي والتنفيذ الفعلي للقدرة اللغوية في مختلف السياقات التواصلية.

ولا يطابق الإنجاز دائما قواعد القدرة اللغوية، إذ تتدخل مجموعة من العوامل أثناء الكلام، مما يؤدي إلى جملة من التغييرات. وقد حدد غلفان(2010) هذه العوامل فيما يلي:

- المقام والظروف التي ينجز فيها القول؛

- الحالة النفسية للمتكلم وما قد يعتريه من نسيان وعياء؛

التفاوت الحاصل في المستوى الثقافي للأفراد وتجانس لغتهم وما شابه ذلك من المظاهر التي تميز إنجازات الأفراد رغم اشتراكهم في القدرة اللغوية الواحدة. ولهذه العوامل الخارجية أهمية قصوى في تحليل الإنجاز. وبالنظر إلى ما يحتويه الإنجاز من معلومات هامة تتعلق بثقافة الفرد

وسلوكه النفسي ووضعه الاجتماعي، فإنه يحمل مؤشرات حقيقية مساعدة على دراسة السلوك البشري في محيط وبيئة معينة[6]. وبالتالي، فلا يمكن الوصول إلى معطيات دقيقة حول الإنجاز أو الأداء الكلامي، بحكم تدخل مجموعة من العوامل. لذلك تم التركيز بشكل أدق على القدرة؛ فمعرفة الخصائص المميزة للإنجاز رهينة بالمعرفة الدقيقة للقدرة اللغوية. ويعتبر غلفان(2010) أن تشومسكي يفضل الاهتمام بالقدرة لأن نضج الدراسات الإنجازية متعلق أساسا بتقدم البحوث في مجال القدرة أولا وليس العكس. فلن تتأتى لنا المعرفة الدقيقة بالإنجاز قبل حصولنا على دراسة معمقة ودقيقة وشاملة للقدرة اللغوية التي تعتبر النظام الضمني الذي يسير عليه الإنجاز ويتبعه المتكلم في أداء قواعد لغته، رغم تتدخل العوامل الخارجية المشار إليها سابقا[7]. ومفهوما القدرة والإنجاز في اللسانيات التوليدية مع تشومسكي قريبان من مفهومي اللسان والكلام في اللسانيات البنيوية مع فرديناند دو سوسير. " ويشير تشومسكي نفسه إلى الفرق الحاصل بين الثنائيتين بقوله:" إن التمييز الذي أشير إليه يقترب من ثنائية لسان / كلام. غير أنه من الضروري رفض تصور سوسير للسان"[8]. ورفض تشومسكي لتصور سوسير للسان راجع إلى اعتبار اللسان نسقا ثابتا من العناصر.

3.2. النحوية والمقبولية

ترتبط هذه الثنائية بمستويي التركيب والدلالة في النحو التوليدي التحويلي، وننبه منذ البداية إلى أن تشومسكي في نموذجه الأول البنى التركيبية الصادر سنة 1957 لم يعر أي اهتمام إلى المستوى الدلالي لتفسير دلالة الجمل وتحديد معناها، واعتبر أن المستوى التركيبي بإمكانه تحديد المعنى. وهذا التصور راجع إلى أن تشومسكي يؤمن بفكرة أن النحو مستقل تماما عن الدلالة. وفي هذا الصدد، يقول:" بيد أن البحث في مثل هذه المقترحات يؤدي بنا دائما على ما يبدو إلى نتيجة مفادها أن الأساس الشكلي المحض فقط يمكن أن يوفر لنا ركيزة ثابتة مثمرة لبناء نظرية القواعد. إن البحث المفصل في جميع المقترحات التي تؤيد استخدام الدلالة في نظام القواعد أمر يقع خارج هذه الدراسة ولا أرى أية فائدة منه"[9].

ويظهر جليا من خلال نص تشومسكي أن التركيب يمكنه تحديد معنى الجمل من خلال إرجاعها إلى بنائها النووي وتحديد عناصرها الأولية. وبالتالي، يبعد المكون الدلالي عن تفسير الجمل وإعطائها معنى. فتشومسكي يحاول بناء نحو كلي تشترك فيه جميع اللغات البشرية؛ وهذا التصور دفعه إلى إبعاد المكون الدلالي باعتبار أنه لا يمكن تأسيس نحو قائم على المعنى. ولتفصيل هذه المعطيات، يقول مصطفى غلفان:" ويذهب تشومسكي إلى أن قضايا الدلالة في علاقتها بالنحو عامة، وبالتركيب خاصة، طرحت في الدرس اللساني بشكل خاطئ مركزة على العديد من القضايا الهامشية التي لا طائل منها، وأنها تحتاج إلى التوضيح والصياغة الدقيقة نظرا إلى ما تتضمنه من إرباك وخلط، علاوة على أنها من المسائل الشائكة جدا التي صيغت بشكل غير دقيق. ومن هذه القضايا غير الدقيقة التساؤل عما إذا كنا في حاجة إلى المعلومات الدلالية لاكتشاف نحو ما أو اختياره (أو كيف يمكننا أن نبني نحوا دون اللجوء إلى المعنى؟ وكأن بإمكاننا أن نؤسس نحوا قائما على المعنى؟)"[10].

وبناء على ما سبق، حظيت ثنائية النحوية والمقبولية بأهمية ملفتة بالنظر إلى علاقتها بالتركيب والدلالة؛ فالحكم على دلالية الجملة كما هو معلوم هو إعطاؤها قيمة الصدق أو الكذب، بينما الحكم على جملة بأنها نحوية هو أن تنضبط للقواعد التركيبية المعروفة في لغة ما.

ويمكن ربط ثنائية النحوية والمقبولية بثنائية القدرة والإنجاز، فإذا كانت النحوية تنتمي إلى القدرة، فإن المقبولية تنتمي إلى الإنجاز بحكم أنها تخضع لمجموعة من التغييرات بفعل جملة من العوامل. وبالتالي، قد ننتج مجموعة من الجمل المقبولة ثقافيا مثلا لكنها غير نحوية، وقد ننتج جملا نحوية تخضع لقواعد التركيب المتعارف عليها لكنها غير مقبولة. كما في (1أ) و(1ب).

1أ: أمركم سيدي الرئيس

1ب: أكل الطفل الحائط

فالمثال (1أ) يشير إلى أن فردا أو عاملا يخاطب رئيسه وهو مفرد بعبارة الجمع؛ فهذه الجملة تستقيم ثقافيا واجتماعيا وبالتالي فهي تتسم بالمقبولية، ولكنها غير نحوية. بينما في المثال (1ب) تخضع الجملة لقواعد تركيب اللغة العربية حيث تتضمن فعلا وفاعلا ومفعولا به، ولكنها، مع ذلك، غير مقبولة دلاليا، حيث لا يمكن للطفل أ يأكل حائطا.

ويوضح غلفان هذه المعطيات بالقول:" وإذا كان مفهوم النحوية ينتمي لمجال القدرة، فإن ما يكون مقبولا يخضع للإنجاز ويكون مطابقا له دون التقيد المطلق بقواعد النحوية؛ أي القدرة، وبالتالي ليست كل جملة مقبولة جملة نحوية، وليست كل جملة نحوية جملة مقبولة بالضرورة، والعكس صحيح كذلك"[11].

غير أن هذا التصور للنحو عند تشومسكي، سيتراجع عنه في نموذج 1965 نتيجة الانتقادات اللاذعة التي وجهها له كل من كاتز وفودور سنة 1963 وكاتز وبوسطال سنة 1964؛ حيث عمل على إدخال المكون الدلالي وجعله مكونا ضمن مكونات النحو التوليدي. ورغم ذلك، فقد حافظ المكون التركيبي على مكانته المركزية في النحو عند تشومسكي.

4.2. البنية العميقة والبنية السطحية

تشكل البنية العميقة والبنية السطحية ثنائية مركزية ضمن نظرية النحو التوليدي التحويلي؛ حيث تفترض هذه النظرية أن هناك بنية عميق تشتق منها بنيات سطحية عن طريق مجموعة من التحويلات. وتتجلى أهمية هذه العملية في تفسير العلاقة بين الأفكار والتصورات وتمثيلاتها السطحية؛ أي كيف يتم التمثيل صواتيا للمعاني الموجودة في ذهن المتكلم.

يعني هذا، أن للجملة بنية عميقة تمثل التصورات الذهنية والعمليات الفكرية الداخلية، ويتم تحويل هذه البنية إلى بنية أو بنيات سطحية عن طريق التحويلات.

فإذا أخذنا الجملتين الآتيتين:

2أ: كتب زيد رسالة

2ب: كتبت رسالة من لدن زيد

فإنهما يشكلان بنيتين سطحيتين مختلفتين لنفس البنية العميقة. وبالتالي، فالبنية العميقة هي التركيب الداخلي المجرد الموجود في ذهن المتكلم، والبنية السطحية هي التمثيل الخارجي لهذا التركيب. فهي أي البنية السطحية تفسير صواتي للبنية العميقة.

وهذا التحديد للبنيتين العميقة والسطحية عرفا تطورا بفعل التطور الهائل والمتواصل لنظرية تشومسكي، ففي نموذج العمل والربط حدد تشومسكي أربعة مستويات للتمثيل هي:

- بنية عميقة
- بنية سطحية
- الصورة المنطقية
- الصورة الصواتية

ويضيف غلفان بأنه في نموذج العمل والربط تم التخلي عما كان معروفا في النموذج المعيار بالبنية العميقة وعوضت ب"المؤشر التركيبي الأولي Initial Indicateur syntagmatique" ولم تعد البنية المركبية الأولى تتمتع بأي استقلالية عن غيرها من مكونات النحو؛ مثلما كان الأمر عليه في النموذج السابق[12]. والجديد في هذا الشأن كما يؤكد ذلك غلفان أن التأويل الدلالي منذ النظرية المعيار الموسعة لم يعد حكرا على البنية العميقة وحدها، وإنما أصبح للبنية السطحية دور في التمثيل الدلالي بعد الخضوع لمجموعة من العمليات.؛ حيث أن البنية السطحية تشتق من البنية العميقة بموجب القاعدة التحويلية العامة "أنقلأ". ولتوضيح هذه المعطيات أكثر، يقول غلفان:" وتعادل بنية"س" بنية"ع" مع إضافة المعلومات المتعلقة بقواعد النقل. وتحدد بنية-"س" مكان النقل الأصلي، مما يسمح بتفادي ما قد يحصل من التباس في التركيب.

لنلاحظ الجملة التالية:

- طلبت سعاد من أمها أن تخرج
- التي تتوفر على تأويلين دلاليين مختلفين إذ يمكن أن يكون فاعل الفعل"تخرج" هو "الأم" أو "سعاد".

والبنية العميقة والبنية السطحية من المفاهيم المركزية لتفسير قضية الاكتساب اللغوي عند تشومسكي؛ إذ توضح العلاقة بين المعنى الموجود في ذهن الطفل المرتبط بآليات فطرية يولد مزودا بها، والعمليات التحويلية التي تتحقق بموجبها البنية السطحية.

5.2. الإبداعية

تعد الإبداعية من الخصائص المهمة للغة في النظرية التوليدية التحويلية، فقد عبر عن ذلك تشومسكي في نموذجه الأول البنى التركيبية 1957 وفي أول فقرة منه، حيث يقول:" سأعتبر منذ الآن اللغة مجموعة محدودة أو غير محدودة من الجمل، كل جملة فيها محدودة في طولها، قد أنشئت من مجموعة محدودة من العناصر، فجميع اللغات الطبيعية في صيغتها المنطوقة أو المكتوبة، هي لغات بهذا المفهوم، طالما أن كل لغة طبيعية لها عدد محدود من الفونيمات، مع وجود عدد كثير غير محدود من الجمل"[13]. واضح جدا أن تشومسكي يشير إلى مفهوم الإبداعية الذي يميز اللغة؛ حيث يمكن من عدد محدود من العناصر إنتاج ما لا حصر له من الجمل.

فالطفل لا يتحدث فقط بالكلمات التي سمعها، ولا يفهم فقط الكلمات التي سبق له أن سمعها، ويفسر تشومسكي هذه القضية بكون اللغة ظاهرة إبداعية خلاقة، حيث إن كل متكلم بإمكانه أن يولد جملا لم يسبق له أن سمعها، ويمكنه أيضا أن يفهم ويفسر جملا لم يسمعها من قبل.

وهذا لا يعني أنه يقوم بعملية المحاكاة والتكرار، بل هي عملية توليد الجمل انطلاقا مما يتميز به ذهن الإنسان من قدرات ذهنية، تسمح بتوليد عدد لا متناه من الجمل انطلاقا من عدد محدود من العناصر.

3. الاكتساب اللغوي عند تشومسكي

لا يخفى على المهتمين بموضوع اكتساب اللغات وتعلمها أن هذا الموضوع نال حظا وافرا من البحث من لدن علماء النفس واللسانيين وعلماء التربية والديداكتيك، فلا تجد نظرية لسانية لم تهتم بهذا الموضوع. ويرجع سبب ذلك إلى أهمية اللغة في تحقيق التواصل، بل الأكثر من ذلك أن اللغة سبيل لفهم عملية التفكير عند الإنسان "وقد اهتم تشومسكي بالجانب المتعلق باكتساب اللغة على أساس أنه إشكال هام لا مندوحة لأية نظرية لسانية من تناوله ومحاولة الإسهام في حله، وانتقد الاتجاه السلوكي الذي اقتصر في وصفه للغة على السطح، معتمدا مقياس المنبه والاستجابة، حيث يرى تشومسكي أن هناك فروقا بين الإنسان والآلة والحيوان، فالإنسان يملك قدرات خلاقة أهمها القدرة اللغوية"[14]؛

واضح، أن تشومسكي ينطلق من التوجه العقلاني للغة؛ حيث يعتبر أن اللغة ملكة فطرية عقلانية لها وجود داخلي عميق ووجود خارجي سطحي، وما الوجود الخارجي إلا تحقق للوجود الداخلي الذهني العميق.

وتبعا لذلك، انكب البحث اللساني ولا سيما في اللسانيات التوليدية مع تشومسكي على محاولة فهم العمليات الذهنية والآليات العقلية لاكتساب اللغات من خلال السلوك اللغوي. "ويقصد باكتساب اللغة تلك العملية غير الشعورية وغير المقصودة التي يتم بها تعلم اللغة، وذلك أن الطفل يكتسب لغته الأم في مواقف طبيعية وهو غير واع بذلك، ودون أن يكون هناك تعليم مخطط له، وهذا ما يحدث للأطفال وهم يكتسبون لغتهم الأولى (اللغة الأم)، فهم لا يتلقون دروسا منظمة في قواعد اللغة وطرق استعمالها، وإنما يعتمدون على أنفسهم في عملية التعلم، مستعينين بتلك القدرة التي زودهم بها الله تعالى، والتي تمكنهم من اكتساب اللغة في فترة قصيرة وبمستوى رفيع"[15].

وبهذا، يتميز الاكتساب عن التعلم باعتبار الأول عملية لا واعية يتم بموجبها اكتساب اللغة من خلال سماع لغة الأهل والمحيط، بينما تتم عملية تعلم اللغة من خلال عمليات واعية ومنهجية ووفق قواعد محددة.

وقد أسس تشومسكي مبادئ نظريته حول الاكتساب اللغوي على مجموعة من المفاهيم مثل القدرة، الإنجاز، الإبداعية، ويتغي من خلال ذلك البرهنة على أن اللغة فطرة خاصة بالجنس البشري، وأن عملية اكتسابها هي عملية فطرية تتم من خلال مجموعة من القدرات العقلية والمبادئ التي يولد مزودا بها. وبالاستناد إلى هذه القدرات العقلية والمبادئ الفطرية التي تنتمي إلى جهاز اكتساب اللغة عند الإنسان(Language acquisition device) يستطيع من عدد محدود من الجمل التي سمعها أن ينتج ويؤول ما لا حصر له من الجمل التي تنمي إلى لغته. ويرى تشومسكي" أن الأطفال يتعلمون قواعد لغوية بالغة التعقيد بسرعة هائلة وتوحي هذه السرعة بأن الإنسان لديه تركيب خاص يؤهله لاكتساب اللغة عن طريق تحليل البيانات اللغوية التي يتكلمها، وتكوين الفرضيات حول كيفية بناء التراكيب اللغوية، واللغة عند تشومسكي تعد مظهرا من مظاهر تطور التفكير، ولهذا اهتمت نظريته بدراسة اللغة على أساس سيكولوجي، ويقر بأن الميكانيزم النوعي المتمثل في عضو اللغة الذي يمتلكه الطفل يمكنه من اكتساب اللغة بكل سهولة وسرعة"[16].

بناء على ما سبق ذكره، يتبين أن تشومسكي في نظريته التوليدية اعتبر أن اللغة البشرية ظاهرة فطرية، تتميز بخاصية الإبداعية؛ حيث يمكن إنتاج عدد لا محدود من الجمل النحوية وتفسيرها وفهمها، من خلال المبادئ الصورية الموجودة في ذهن الإنسان.

خاتمة

شكلت نظرية تشومسكي اللسانية ثورة علمية؛ حيث يمكن القول بأنها أحدثت القطيعة الثانية بعد القطيعة الأولى التي أحدثها فرديناند دو سوسير سنة 1916 مع صدور كتابه محاضرات في اللسانيات العامة، فقد انتقل البحث اللساني من دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها إلى دراسة علاقة اللغة بالتصورات العقلية والعمليات الفكرية؛ أي كيف يمكن إنتاج هذه اللغات؟

وقد توصل تشومسكي بالنظر إلى خلفيته الفلسفية العقلانية إلى أن اللغة ظاهرة إبداعية فطرية، بمعنى أن الإنسان يمتلك بشكل فطري جهاز اكتساب اللغات، يسمح له بإنتاج وتأويل ما لا حصر من الجمل انطلاقا من عدد محدود من الجمل التي سمعها. وحاول تشومسكي في نظريته التمييز بين النحو الكلي والنحو الخاص، واعتبر أن نظريته تسعى إلى وضع تصور نحو عام يدرس جميع اللغات البشرية. وتوسل إلى ذلك بالاعتماد على مجموعة من المفاهيم المركزية التي تشكل عماد نظريته اللسانية.

الهوامش:

[1]مصطفى غلفان بمشاركة امحمد الملاخ وحافظ إسماعيلي علوي(2010)، اللسانيات التوليدية من النموذج المعيار إلى البرنامج الأدنوي: مفاهيم وأمثلة، عالم الكتب الحديث، الأردن، صص 5-6.

[2] انظر، المرجع السابق، ص6.

[3]شيخ يعقوب أديديجي(2018)، نظريات تشومسكي اللسانية، كلية اللغة العربية، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ص8.

[4]مصطفى غلفان بمشاركة امحمد الملاخ وحافظ إسماعيلي علوي(2010)، ص7.

[5]المرجع نفسه، ص41.

[6]مصطفى غلفان بمشاركة امحمد الملاخ وحافظ إسماعيلي علوي(2010)، ص43.

[7] المرجع نفسه، ص43.

[8] N. Chomsky , Aspects de la theorie syntaxique , p12.

[9] نعوم تشومسكي (1957)، البنى النحوية، ترجمة يؤيل يوسف عزيز، ط1، مكتبة لسان العرب، بغداد.

[10]مصطفى غلفان بمشاركة امحمد الملاخ وحافظ إسماعيلي علوي(2010)، ص36.

[11] المرجع نفسه، ص37.

[12] المرجع نفسه، ص308.

[13] [13] نعوم تشومسكي (1957)، البنى النحوية، ترجمة يؤيل يوسف عزيز، ص17.

[14]آيت أوشان علي(1998)، اللسانيات والبيداغوجيا، نموذج النحو الوظيفي، دار الثقافة المغرب، صص36-37.

[15]بوبات عبد الحليم(2019)، اكتساب اللغة لدى الطفل بين تشومسكي وجان بياجيه، دراسة مقارنة، الجامعة الإفريقية، الجزائر، ص8.

[16] ريام حسن سوادي(2025)، اكتساب اللغة لدى الأطفال في فلسفة نعوم تشومسكي، مجلة العلوم الإنسانية، ع21، ص1023.